المحاضرة رقم(05)

الأدب السياسي في العصر الجاهلي

مفتتح

ساد الدراسات النقدية المتعلقة بالشعر الجاهلي شبه اعتقاد مفاده أن الشعر الجاهلي شعر غنائي مرتبط ارتباطا وثيقا بالذات العربية، إذ يصور تفاصيلها الدقيقة وفق ثنائية الحياة والموت، حيث جرى إسقاطها وفق ثنائيات ضدية منها: الحب والنفور، الهجر والوصال، الحل والترحال، الحرب والسلام، فتشكلت أطره التعبيرية وفق موضوعات محددة، وهي: المدح، الفخر، الهجاء، الرثاء، الاستنفار، الوعيد، الصيد، ومع انفتاح الدراسات على معطيات الدرس النقدي الحديث راجت أفكار جديدة رأت أن الشعر الجاهلي عرف موضوع الشعر السياسي باعتبار بنيته الاجتماعية المتكونة من القبيلة، والزعيم، وقائد الحرب، وما يحكمها من علاقات داخلية تضبط علاقة الأفراد فيما بينهم، وعلاقات خارجية تنظم علاقة القبيلة بالقبائل الأخرى من جهة الجوار والتجارة والحرب، وهو ما خلق صراعا أدبيا في حقل الدراسات النقدية بين مؤيد ومعارض لفكرة وجود شعر سياسي في الفترة الجاهلية، حيث قدم كل طرف حجته التي تثبت أصالة رأيه وتدحض هشاشة الرأي الآخر، وهو ما سنتعرف عليه في المحاضرة الحالية .

1- طه حسين (1889م- 1973م)

يرى طه حسين، في كتابه "تقليد وتجديد" أن الشعر الجاهلي لم يعرف السياسة؛ لأنه لم يعرف مفهوم الدولة إنما عرفها في فترة الحكم الأموي[1]، متخذا من الشعر أساسا نقديا لفكرته، فهو عنده مرآة تعكس بقوة مجريات تلك الفترة، إذ تصور أن القبيلة لم تبلغ أشراط المدنية بما عرف عنها من نزاعات ذات طبيعة عصبية دارت في عمومها حول النفوذ والتوسع وتعليم مناطق التجارة وتحصينها، عكس المدينة التي روجت للنزاعات السياسية بتنوعاتها المختلفة، كالاتجاهات السياسية، الأيديولوجية، والحزبية، وبما أن الشعر مرآة عاكسة لمحيطها الاجتماعي، فقد صورت بأمانة تداعيات الوسطين: الجاهلي والإسلامي، فغاب الشعر السياسي عن الأول، بينما انتشر وراج في الثاني.

2- أحمد وفيق (؟- ؟)[2]

بينما يرى أحمد وفيق، في كتابه "علم الدولة"، أن القبيلة تلتقي مع الدولة في مظاهرها العامة، وهي: الطبيعة، الأسرة، العقد الاجتماعي، القوة، والإرادة، بحيث أمكنه القول بأن القبيلة العربية صورة مصغرة عن الدولة بمفهومها الحديث[3].

3- مارون عبود (1886م- 1962م)

فيما يثبت مارون عبود، في كتابه "أدب العرب"، أن العرب قد عرفوا الشعر السياسي، مقدما أربعة أمور، هي في نظره، تعد أسسا نقدية أوجدت السياسة، وبالتالي الشعر الخاص بها، في جزيرة العرب، وهي:

أ- احتكاك الأديان.

ب- مخالطة الأمور المختلفة بالتجارة.

جـ- سوق عكاظ التي كانت أشبه ببؤرة سياسية.

د- نفوذ الفرس والرومان الذي يمثله الغساسنة والمناذرة[4].

---

1)- طه حسين، ***تقليد وتجديد***، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، (د.ط)، 2017م، ص20.

2)- لم نقف على سيرته فيما بين أيدينا من مراجع.

3)- أحمد وفيق، ***علم الدولة: في أصول الدولة وتطورات فكرتها***، مطبعة النهضة، القاهرة- مصر، ط1، 1353هـ- 1934م، 1/ 188.

4)- مارون عبود، ***أدب العرب: مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم***، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، (د.ط)، 2012م، ص79.

4- أحمد الشايب (1896م- 1971م)

كما تصور أحمد الشايب، في كتابه "الشعر السياسي"، أن الشعر الجاهلي متصل بالقبيلة من طريق نظامها الداخلي أو علاقاتها الخارجية، إذ يكشف طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفرادها كالشرف والوضاعة والغنى والفقر، بقدر كشفه عن حقيقة العلاقات التي تربط القبائل فيما بينها، وهي قد تكون توافقية أو تصادمية، بحكم المنافسة على المكانة أو التجارة، التي يغذيها الصراع المستمر فيما بينها، فيمكن بالتالي عد الشعر الذي قيل في تلك المناسبات «صورة أولية للشعر السياسي، إن لم يكن شعرا سياسيا كاملا.»[5]

مهما يكن الأمر، فإنه لا يسعنا قبول الدعوة القائلة برفض الشعر السياسي في الفترة الجاهلية، ذلك أن العرب إذا لم تعرف مدنية فقد عرفت القبيلة وعرفت معها سياسات تنظيم شؤونها الداخلية والخارجية، على الرغم من أنها سياسات بسيطة بساطة الحياة الجاهلية، كما لا يمكننا رفض الدعوة القائلة بقبول الشعر السياسي في الفترة الجاهليه كلها بطريقة تساوي شعر الفترة الإسلامية أو تقاربه، لسبب بسيط مفاده أن الفترة الأموية قد عرفت المدنية وتداعياتها الداخلية والخارجية[6]، فيما ظلت القبيلة الجاهلية بعيدة عنها ما خلا بعض الإرهاصات الطبيعية التي تخللت مجريات الفترة نظرا لطبيعة الأفكار الناجمة عن التحول المجتمعي للقبيلة ذاتها؛ كنزاع الصعاليك وقبائلهم، وأيام العرب، وأحداث الإمارتين: الغسانية والمناذرية، فقد نتج عن ذلك كله شعر كثير لا يمكن إلا أن يكون سياسيا، كما سنتبينه في الآتي:

---

5)- أحمد الشايب، ***تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني***، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط5، 1976م، ص40.

6)- ابن كثير، ***البداية والنهاية***، اعتنى به: حسّان عبد المنّان، بيت الأفكار الدولية للطبع والترجمة والنشر، لبنان، (د.ط)، 2004م، ص1201.

1- شعر الصعاليك

يظهر شعر الصعاليك بمظهر غنائي، يعتز بالشخصية الفردية، ومذهبهم الثوري[7] المعارض لنظم القبيلة الاجتماعية منها والسياسية، فاندرج إنتاجهم ضمن تصنيف الشعر السياسي الذي لم يكتف بكونه «أول ثورة واقعية متمردة في الشعر الجاهلي»[8]، بل تجاوزها إلى النظام القبلي، باعتباره المرجعية التي تحدد الشعر ويحددها بدوره، انطلاقا من محاولة هدم نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها، وذلك باستبدال شخصية القبيلة في القصيدة بشخصية الصعلوك، والاهتمام بتصوير حياته تفصيلا دقيقا بدل الانصراف إلى القبيلة إشادة أو دفاعا عنها، «فكان قصيدهم مثالا قويا لشخصياتهم وسلوكهم، لا يكتمون منه شيئا ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصدق والصراحة والقوة، وظهرت هذه الصفات في فنهم.»[9]

قال الشنفرى منددا بسياسة القبيلة، ومعلنا عن سياسة قبلية جديدة تقوم على نبذ التعالي، والمطالبة بنظام جديد يقوم على مبدأ التساوي في الحقوق والواجبات بين أفراد القبيلة جميعا: (الطويل)

1- أقيموا بني أمّي صُدورَ مَطيّكُمْ فإنّي إلى قومٍ سِواكُم ْلأمْيَلُ
2- فقدْ حُمَّتِ الحاجاتُ الليلُ مُقمِرٌ وشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مطايا وأرحُلُ[10]
3- وفي الأرضِ منأىً للكريمِ عنِ الأذى وفيها لمنْ خافَ القِلَى مُتَحَوَّلُ[11]
4- لَعَمْرُكَ ما بِالأرضِ ضيقٌ على امرئٍ سَرَى راهِبًا أو راغِبًا وَهْوَ يَعْقِلُ[12]

تصور لنا القصيدة حياة الصعلوك تصويرا دقيقا، وهي حياة تقوم على الحرية الشخصية، كما أنها، على غرار شعر الصعاليك كله، تظهر حماسة ووصفا وفخرا، وتعلقا بالحرية ونقمة على التقاليد والنظام، ومشاركة لحيوان الصحراء، واعتزازا بالمواهب الفردية، ولكنها من حيث غايتها تعد «مثالا لشعر سياسي طريف هو شعر الثورة والكفر

7)- أحمد الشايب، ***تاريخ الشعر السياسي***، ص50.
8)- أحمد سويلم، ***شعرنا القديم رؤية عصرية***، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، (د.ط)، 1979م، ص2.
9)- أحمد الشايب، ***المرجع السابق***، ص51.
10)- حُمَّ: قدر وتهيّأ وحضر.
11)- القِلَى: البُغضُ والتَّحوُّلُ.
12)- الشنفرى، *ديوانه*، جمعه وحققه وشرحه: إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1417هـ- 1996م، ص58.

بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والفقر المدقع بجانب هذا الفقر العام في البلاد كلها حتى كانت حياة العرب خشنة شحيحة مضطربة المناهج.»[13]

2- شعر الأيام

أفضت المنافسة بين القبائل العربية إلى نزاعات مريرة غذتها العصبية والأحقاد والصراعات المتكررة، عرفت بـ "أيام العرب" خلفت شعرا أرخ لمجرياتها بالتفصيل، فعد لأجل ذلك شعرا سياسيا لأنه يرصد «علاقة القبائل معا والذي يصح أن يدعى شعر السياسة الخارجية للقبيلة باعتبارها دولة صغيرة.»[14]

قال قيس بن الخطيم الأوسي مفتخرا بيوم "حاطب" الذي كان للخزرج على الأوس[15]: (الطويل)

1- دعوتُ بني عوفٍ لحقنِ دمائِهِمْ فلمّا أبوا سامحتُ في حربِ حاطِبِ

2- وكنتُ اُمْرُأً لا أبعثُ الحربَ ظالمًا فلما أبوا أشعلتُها كلّ جانِبِ

فناقضه عبد الله بن رواحة بقصيدة منها[16]: (الطويل)

1- إذا غُيِّرتْ أحسابُ قومٍ وجدتَنا ذوي نائلٍ فيها كِرامَ المَضارِبِ

2- نُحامي على أحسابِنا بتلادِنا لمُفتقِرٍ أو سائلِ الحقِّ راغِبِ

3- بخُرسٍ تَرى الماذيَّ فوقَ جُلودِهِمْ وبَيضًا نِقاءً مثلَ لونِ الكواكِبِ[17]

يحكي المثالان سياسة القبيلة الخارجية القائمة على الدعاية، التي تفترض ناطقا سياسيا هو الشاعر الذي يفاخر بقومه ويشيد بمواقفهم ومآثرهم مع التهوين من شأن عدوهم وهجائه، كما تصرح ببيان سياسي هو الشعر الذي يركز أثناء هجومه على القبيلة أو القبائل الأخرى على المعاني الجزئية التي تثير قضايا التآزر والصبر وحماية الجار،

13)- أحمد الشايب، ***المرجع السابق***، ص51.
14)- ***م.ن***، ص54.
15)- قيس بن الخطيم، ***ديوانه***، تحقيق: إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد- العراق، ط1، 1381هـ - 1961م، ص32.
16)- وليد قصاب، ***ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره***، دار العلوم للطباعة والنشر، دمشق- سوريا، 1402هـ - 1982م، ص70.
17)- الماذيُّ: خالص الحديد وجيده. بِيضًا: (ج) أبيض؛ وهو السيف. نِقاءً: (ج) نَقِيٍّ؛ وهو الخالص الخالي من الشوائب.

والسيادة في القرى، والفوز في الحروب، ورفعة الأنساب، فكان «الشعر الذي قيل في سبيلها شعرا قبليا لا يبعد كثيرا عن صور الشعر السياسي الحديث»[18]

3- شعر الإمارة

شهدت الجاهلية تنافسا سياسيا شديدا بين إمارة الغساسنة في الشام الموالية للروم وإمارة المناذرة في الحيرة الموالية للفرس، فنشبت بينهما معارك كثيرة منها يوم حليمة للحارث بن جبلة الغساني ملك الشام على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة[19]، ثم لتفاضل بعض الشعراء فيما بينهم، من ذلك تفوق النابغة شاعر المناذرة على حسان شاعر الغساسنة، أفضى إلى انقلاب النابغة إلى الغساسنة وحسان إلى المناذرة زمنا، بسبب سعايات سياسية أفسدت العلاقة بين النابغة وملك الحيرة، انتهت بعودة الأول إلى المناذرة مما اضطر الثاني إلى المغادرة مكرها، فنتج إثر هذا كله «شعر سياسي في مغزاه وإن بدا لنا شعرا غنائيا في فنونه ومعناه.»[20]

من ذلك معلقة عمرو بن كلثوم[21]، التي أنشدها بين يدي ملك الحيرة عمرو بن هند، لفض العداوة بين قبيلته تغلب وقبيلة بكر الممتدة منذ حرب البسوس: (الوافر)

1- ألا هُبّي بصَحنك فاصْبحينا ولا تُبقي خُمورَ الأندرينا[22]

ومعلقة الحارث بن حلزة اليشكري[23] ، من قبيلة بكر، التي قالها بين يدي الملك نفسه، ردا على معلقة عمرو بن كلثوم: (الخفيف)

1- آذَنَتْنا ببَيْنِها أسْماءُ رُبَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثّواءُ

تتبنى القصيدتان على ثلاثة عناصر رئيسة هي: الفخر بقبيلة الشاعر، وتهديد القبيلة الأخرى، والامتنان على الملك وإرهابه، وإن كان عمرو أشد تعاليا، وأكثر ادعاء، والحارث أشد اعتدالا، وأقرب إلى الواقع، وعلى كل فالقصيدتان أرقى الشعر القبلي

18)- أحمد الشايب، ***المرجع السابق***، ص63.
19)- محمد أحمد جاد المولى بك وآخران، ***أيام العرب في الجاهلية***، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص54- 59.
20)- 20)- أحمد الشايب، ***المرجع السابق***، ص69.
21)- أحمد أمين الشنقيطي، ***المعلقات العشر وأخبار شعرائها***، دار النصر للطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت)، ص107.
22)- الصحن: القدح العظيم. الصَّبوح: شراب الصباح عكسه الغَبوق وهو ما يشرب في العشي. الأندرين أو أندرونا: قرية أثرية بالشام ازدهرت في العهد البيزنطي، معروفة بجودة خمورها التي تنسب إليها.
23)- أحمد أمين الشنقيطي، ***المرجع السابق***، ص135.

جميعه، مما أدخله في باب الشعر السياسي، باعتباره «الفن من الكلام الذي يتصل بنظام الدول الداخلي أو بنفوذها الخارجي ومكانتها بين الدول.»[24]

4- خصائصه

أ- شعر قبلي طالما أن القبيلة هي المرجعية التي يصدر عنها ويتحدد بها.

ب- يتناول أغراض الشعر المعروفة في إطارها القبلي السياسي الداخلي أو الخارجي.

ج- غنائي يحكي صورة الفرد المنتمي للقبيلة، أو المتمرد عنها.

د- يرد في شكل قصائد عند شعراء القبيلة أو الإمارة، كما يرد في شكل مقطوعات عند الشعراء الصعاليك.

هـ- يعكس صورة القبيلة في علاقاتها الداخلية والخارجية.

تأسيسا على ما سبق يمكن القول بأن الجاهلية قد عرفت السياسة، والشعر الذي نتج إثر تداعياتها هو شعر تميز بطابعه السياسي، لكنه شعر بسيط النمط، عفوي المنحى، سطحي الموقف؛ لأن إشكاليات القبيلة ونظمها وعلاقاتها الداخلية والخارجية لم تبلغ التعقيدات السياسية التي شهدتها الدولة الإسلامية، في الفترة الأموية على نحو أكثر تحديدا، والتي أثارها الأمراء والقواد والأحزاب السياسية كالفرع السفياني والمرواني والخوارج والشيعة طلبا للملك والتوسع والنفوذ والسيطرة والسيادة، فاغتنى الشعر السياسي في هذه الفترة وانتشر إنتاجه لكثرة روافده، بينما قل الشعر السياسي في الفترة الجاهلية وضاق إنتاجه لقلة دواعيه.

24)- *تاريخ الشعر السياسي*، ص4.